الفصل الثامن

تأثير الحضارة الإسلامية على تطوير مفهوم الديمقراطية في الغرب

قامت الحضارة الإسلامية على أساسيات الدين الإسلامي ومبادئه. وقام الدين الإسلامي على خلاصات من المحاسن والإيجابيات للديانات الثلاث التي كانت في عصره عند ظهوره وهي الديانة الوثنية (الجاهلية) والديانة اليهودية والديانة المسيحية فاستوعب أحسن ما فيها من أصول وقواعد وأركان وأخلاق ولفظ أسوأ ما فيها من الضلال والانحراف فصهرها في مزيج جديد وأضاف إليها من الأركان والأخلاق والأصول منتجًا دينيًا معتدلًا متكاملًا وشاملًا لتنظيم الحياة الإنسانية تنظيمًا عامًا في معظم الأحيان وخاصًا في بعض الأحيان وفق أصول شريعة وسطية موزونة صالحة لكل زمان ومكان ليس فيها إفراط وغلو أو تفريط ودنو لأن أوامر الله وتعاليمه لا يدخلها الباطل أو الإبطال. وحين انتشر الدين الإسلامي بحضارته في مختلف الأرجاء والأصقاع فإنه كان يستوعب ويهضم في طريقه كل محاسن وإيجابيات الحضارات الشرقية والغربية وأعاد أنتاجها إسلاميًا في حضارة متميزة أضاءت بنورها سماوات الشرق والغرب فأيقظ الشعوب من سباتها ودفعها نحو طرق بناء الحياة ورقيها وتقدمها فتلك أوروبا الغارقة في عصورها المظلمة (القرون الوسطى الأوروبية) تحتك بالحضارة الإسلامية وتتفاعل بها اقتباسًا وترجمة وتجارة وتعاملًا وتصادما قبل الحملات الصليبية وخلالها وبعدها فتنتشر الثقافة الإسلامية في أوروبا الغربية و شرق أوربا العثمانية من خلال نظم الحكم والخلافة مع انتشار اللغة العربية وآدابها وعلومها في جنوب ايطاليا وصقلية والأندلس وبعض أطراف حوض البحر الأبيض المتوسط وجزره وتتمازج الثقافات في إسبانيا وتنقل إنجازات العرب إلى أوروبا في ميادين الآداب والفنون والعلوم الدقيقة والتطبيقية العملية والطب والفلسفة وفنون العيش والحياة والخبرات الملاحية فتتطور الرياضيات وعلوم الفلك

والطب والفلسفة من خلال الاحتكاك والترجمة التي شهدت عصرا ذهبيًا لها في ذلك الوقت.

إن سطوع شمس الإسلام على أوروبا في عصور الحضارة الإسلامية الزاهية قد أيقظ أوروبا من سباتها بإنارة طريق نهوضها ويقظتها فأخرجها من ظلامات وإظلامات عصرها الوسيط إلى عصر تنوير ونهضة فقد مكثت أوروبا طوال عشرة قرون من مجيء الإسلام إليها وانتشاره في بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط وجزره من الخلافة الأموية في القرن(٨) الثامن الميلادي إلى بداية أفول الخلافة العثمانية في القرن(١٩) التاسع عشر تتأثر بحضارته نقلًا واقتباسًا وتتفاعل ثقافة وتتحاور فكرًا وتتبادل تجارة وتتصارع حربًا حتى أفاقت من علل تخلفها بفضل عوامل الاحتكاك الحضاري للإسلام وبركاته الثقافية والفكرية في العدالة والحرية والمساواة والأخلاق الإسلامية والتقاليد الديمقراطية في الحكم و الإدارة التي كان من أهمها تقليد نظام الحكم الإسلامي في فصل الدين عن الحكام وليس عن الدولة حين رؤوا أن حكام المسلمين ليسوا رجال دين من الكهنوت بينما هم باسم المسيحية يرزحون تحت سيطرة رجال الكنيسة من الكهنوت الذين يوزعون صكوك الحرمان والغفران على الناس حسب انصياعهم للكهنة.

لقد تعرض الإسلام لحملة تضليل تشويه كبيرة قام بها رجال الكنيسة في أوروبا خوفًا على مصالحهم ونفوذهم واستطاعوا أن يؤثروا في مفكري أوروبا منذ القرن(٩) التاسع الميلادي إلى اليوم وقد عزز حملات التضليل والتشويه للإسلام المطامع التجارية والاستعمارية اللاحقة لحكام أوروبا منذ بداية الحملات الصليبية في القرن(١١) الحادي عشر الميلادي التي لم تتوقف حتى الآن بعد أن اتخذت أشكالًا وألوانًا مختلفة في الوعي الشعبي الأوروبي وفي سياسات دولهم التي كان آخرها الحملة الصليبية التي أعلنها الرئيس الأمريكي "جورج بوش" على الإسلام في هذا القرن. ورغم أن "القرآن الكريم" قد تُرجم إلى اللغة اللاتينية في القرن(١٢) الثاني عشر الميلادي ثم ترجم إلى معظم اللغات الأوروبية على فترات متعاقبة منذ القرن(١٥) الخامس عشر وحتى اليوم فإنه حين طُبع باللغة العربية في أوروبا عام ١٥٣٠م من

القرن(١٦) السادس عشر قامت الكنيسة بإعدام النُسخ المطبوعة خوفًا من الإسلام على سلطانها لما يحمله هذا الدين من حرية وعدل ومساواة وعقلانية.

لقد كان رجال الكنيسة المسيحية يمنعون ويحرِّمون على المتعلمين الأوروبيين ترجمة مؤلفات ومصنفات علماء المسلمين في العلوم الشرعية الإسلامية ،التي هي في جوهرها فلسفة للقانون ، خوفًا على كهنوتهم الاستغلالي للدين المسيحي وضياع نفوذهم ومصالحهم من جهة وعلوًا واستكبارًا على تقبل الفكر الشرقي بصفة عامة، وخوفًا من تغلغل العلوم الإسلامية المحملة بحقوق الإنسان في عقلية الأوروبيين لأن الثقافة العنصرية الأوروبية تجعلهم لا يعترفون بالتفوق أو التميُّز للشعوب الأخرى التي حولهم ولا بتأثيرها عليهم. فهم لا يعترفون علنًا بتأثير الحضارات الأخرى وثقافاتها عليهم إلا حينما تكون صدىً أو تكرارًا لحضارتهم وثقافتهم. فَهم مثلًا يمجدون "ابن رُشد" الفيلسوف الطبيب الذي ترجم وشرح وناقش فلسفة أرسطو مع أنه كان عالمًا وقاضيًا وإمامًا وطبيبًا، كما يمجدون "ابن سينا" لأنه كان فيلسوفًا ومهتمًا بفلسفة أرسطو وعالمًا بالطب ومؤلفًا فيه. أما "ابن خلدون" فيمجدونه لعدة أسباب توافق هواهم أولها حينما قرر أن نظرية قيام الدولة تحتاج للعصبية القومية التي نبذها الإسلام وهو ما ناسب الفكر الأوروبي المتعصب عند نهضتهم وقيام دولهم القومية بعيدة عن سيطرة الدين المسيحي الذي أساء استغلاله القساوسة لأنه لا يحمل أي فكر عن بناء الدولة ومهامها، وثانيها أن ابن خلدون في بعض تحليلاته قلل من قيمة العرب وإسهامهم في العمران الحضاري،بحكم الحياة البدوية، وهو ما ناسب ثقافة الاستعلاء الأوروبية في التقليل من الحضارة العربية والإسلامية. أما آخر الأسباب فهو اجتهاده في فلسفة علم التاريخ وفي تحليله للمجتمع الإنساني وتفاعله مع المكان والزمان مؤسسًا بذلك علم الاجتماع الحديث الذي استفاد منه الفكر الأوروبي في سيطرة الدولة على المجتمع. ورغم عبقرية ابن خلدون في كثير من العلوم إلا أن بعض اتجاهاته وانحيازاته الفكرية كانت متأثرة بطموحاته وعلاقته مع أرباب الحكم والسلطة في زمانه. فكثرة المصائب التي حلت به جعلته يفضل المهادنة والابتعاد عن ذوي السلطان تجنبًا للمشاكل كما حدث له مع

بعض حكام الأندلس والمغرب أو الغزاة التتار، غير أنه لم يتهاون قط في عدل قضائه وأحكامه الشرعية.

إن الفكر الأوروبي المتعالي لم يلتفت إلى الثقافة الشرعية الإسلامية العميقة لدى ابن رشد وابن خلدون في مختلف العلوم الشرعية فكيف به ينظر أو يعترف بمئات العباقرة من مفكري الإسلام في العلوم الشرعية والعلوم الطبيعية طوال القرون الزاهرة، التي لم يعرف التراث الإنساني مثلها في ذلك الوقت عمقًا في الفكر والعقلانية أو سعة وتبحرًا في ميادين بحوثها الثقافية والاجتماعية والعلمية المختلفة. بل إن عين السخط والاحتقار هي التي رؤى بها نبي الإسلام ودينه وعين الغضاضة والتجاهل هي التي رئى بها التراث الإسلامي الكبير في مختلف المجالات. ولذلك فإن الفكر الأوروبي حيثما يتحدث عن نهضته وتنويره يدَّعي ارتباطه مباشرة بالفكر الإغريقي الذي نقله له المسلمون متجاوزًا الوجود الإسلامي وقافزًا فوق الحضارة الإسلامية التي سدت تلك الفجوة في التاريخ الأوروبي والتاريخ الإنساني بحضارة عظيمة عدة قرون. إنها كبرياء العصبية العنصرية التي تعمي الأبصار، غير أن الأمور بدأت تتكشف حقيقتها تدريجيا في العصر الحديث على يد بعض المفكرين المنصفين في أوروبا رغم أن الاستكبار العنصري للجنس الأوروبي اتخذ أشكالًا جديدة للعداء ضد العرب والمسلمين برايات صليبية متصهينة ترفعها اليوم القارة "المارقة" كما سماها أحد الجغرافيين المسلمين القدماء التي حُرِّف اسمها إلى" أمريكا".

وإذا تفحصنا المذهب البروتستانتي الذي ثار به القسيس "مارتن لوثر" في القرن(١٦) السادس عشر في ألمانيا على الكنيسة لوجدنا تأثره واضحًا بالإسلام في أفكاره التالية التي هي عكس ما يقول به قساوسة الكنيسة الكاثوليكية لأهل أوروبا في ذلك الوقت وهي:

(أ) إن فهم كتاب الإنجيل ليس مقصورًا على رجال الدين في الكنيسة وأن الفرد العادي يستطيع فهمه دون واسطة.

(ب)يجب أن يقتصر سلطان الكنيسة المسيحية على الوعظ والإرشاد وبلغة مفهومة.

(ج)رفض الحق الإلهي للقساوسة في توزيع صكوك الغفران على الناس واتهم القساوسة بالفساد.

(د)جعل العلاقة مباشرة بين الفرد وربه أي إن الإنسان مسؤول أمام ربه وليس أمام الكنيسة.

(هـ)إن الإنسان حر في تقدير أمور الدنيا والحكم عليها بعقله. إن الإسلام بتأثيراته المختلفة قد استطاع حقًا أن يحرر أوروبا وشعوبها من سيطرة الكنيسة ورجال الدين الكهنوت على الفكر والسياسة والحياة العامة الذين جعلوا من أنفسهم أولياء الله على الأرض يرفعون ويذلون من يشاءون من الحكام والناس بتوزيع صكوك الغفران واستغلالهم ماديًا حتى ببيع قطع أرض في الجنة التي يدَّعون بامتلاك مفاتيحها.

يقول الكاتب الكبير عباس محمود العقاد في كتابه (أثر العرب في الحضارة الأوروبية) ما يلي: «من المفارقات في ظاهر الأمر أن يقال: إن الحضارة الإسلامية كان لها أثر في فصل الدولة عن الكنيسة، وفيما تلا ذلك من حركات التحرير أو دعوات التغير في معنى الدولة والملك وعلاقة الرعايا والملوك. وإنما يبدو هذا القول كأنه من قبيل المفارقات لأن المعلوم الشائع عن الإسلام أنه وحد الملك والخلافة الدينية وجمع بينهما في كثير من الدول الإسلامية شرقيها وغربيها وقديمها وحديثها، فكان لقب أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين من ألقاب الملوك المسلمين إلى زمن غير بعيد، ولا يزال من هؤلاء الملوك من يتسمى به في مملكته إلى الآن. لكن الواقع كما أسلفنا أن المفارقة في الظاهر لا في الحقيقة، لأن حركة التحرير في هذا الاتجاه بين الأوروبيين إنما أتت على خطوات متلاحقات منذ القرن الحادي عشر للميلاد إلى عصر الثورة الفرنسية. وكانت الخطوة الأولى في هذا الاتجاه هي ثورة الملوك على سلطان الكنيسة ونزوع بعضهم كما حصل في إنجلترا هي الجمع بين الرياسة الدنيوية والرياسة الدينية، وكان استقلال الملك المسلم عن سلطان رجال الدين في الشرق والغرب من أقوى الحوافز التي جالت في خواطر الملوك الأوروبيين زمنا بعد مقاربتهم للدول الإسلامية في الأندلس تارة وفي البلاد التي تناولتها الحروب الصليبية تارة أخرى، فنزعوا بدافع من الغيرة والقدوة الماثلة أمام أعينهم إلى محاكاة أندادهم وأقرانهم والتمرد على ذلك

السلطان الشامل الذي فرضته الكنيسة عليهم وعلى رعاياهم». «وقد كانت هذه الثورة الملكية ضرورية قبل الثورة الشعبية التي تلتها، وكانت حرية الشعوب مع ملوكهم على قدر حرية الملوك مع رجال الكنيسة ولولا أن ثورة الملوك كانت لازمة قبل ثورة الشعوب لاستفاد الأوروبيون من مقاربة الدول الإسلامية معنى آخر أجل وأسمى من هذا المعنى في فهم حقيقة الدولة وحقيقة الرعاية أو العلاقة بين الراعي والرعية، لأن أوروبا ظلت إلى القرن(١٧) السابع عشر تعتبر الدولة سيادة للحاكمين على المحكومين، وظل علماؤها ينكرون حق الشعب في الإشراف على الحكومة ويعتبرون أن هذا الحق طريق إلى الفوضى والفساد كما قرر "جروسيوس" في كلامه عن حقوق الحرب والسلام. وقبل "جروسيوس" -أمام القانون الدولي عندهم في زمانه- كان المعري يقول في أوائل القرن(١١) الحادي عشر للميلاد، أي قبل "جروسيوس" بستة قرون:

ظلموا الرعية واستباحوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها.

وقبل المعري بأربعة قرون كان القرآن يعلم الناس أن أمر الرعية شورى بينها، وكان ﷺ يعلمهم أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق وكان الفاروق يعلمهم أنهم ولدوا أحرارًا لا يستعبدهم خليفة ولا أمير»، انتهى كلام العقاد.

إن التأثير الإسلامي الحضاري على أوروبا لم يقتصر على تخليص الأوروبيين من سيطرة الكهنوت السياسي والديني بجبروته الظالم على الشعوب والدول، بل إن فكرة التعددية النابعة من التسامح والمساواة والعقلانية "لم تعرفها أوروبا إلا من خلال احتكاكها بالدولة العثمانية التي طبقت نظام "الملل" منطلقة من سعة الإسلام فأفسحت لكل آخر مكانًا ومكانة، حتى آمنت وحمت كافة التمايزات الدينية التي حفلت بها البلدان الداخلة في نطاق الإمبراطورية.

قبل النموذج العثماني لم تكن فكرة شرعية الآخر واردة في التجربة الأوروبية، ولكن الاحتكاك العثماني الأوروبي كان كفيلًا بانتقالها ضمن ما جرى تبادله من خبرات وأفكار بين الجانبين خلال القرون الخمسة التي هي عمر الإمبراطورية العثمانية. وقد شاءت المقادير أن تنضج الفكرة في التجربة الأوروبية وتتحول في نهاية

المطاف إلى واحدة من أهم الممارسات الديمقراطية التي صرنا نتطلع إليها وننشرها. بل وصار كثيرون من الباحثين الغربيين يحاكمون بها الإسلام وينسبون إليه عجزًا عن استيعاب التعددية. لقد غيَّبت عصور التراجع والاستبداد السياسي وبروز أولويات أخرى مثل مقاومة الاحتلال الأجنبي فكرة التعددية على الواقع الإسلامي". كما يقول فهمي هويدي في كتابه "الإسلام والديمقراطية".

يقول الدكتور حسن الترابي: "وسرت عوامل التحول الأوروبي بمدد من الثقافة الإسلامية وتطور الحياة مما حرك نهضة الصحوة العلمية والعقلانية، وأوحى بتحرير من الولاء الديني الكنسي، وأثار ثورات وتقلبات ضد النظام الملكي الإقطاعي فتحت أبواب التعبير السياسي الحر للقاعدة الجماهيرية في شان ولاية السلطان وسياسات الأمر العام. وعندئذ تشعبت القوى التي تعبر عن الإرادة السياسية للشعب أحزابا شتى تتناظر بالمذاهب وتتنافس على التحكم المتعاقب على السلطة."

أما المستشرق "مونتجومري وات" فيقول في كتابه: (فضل الإسلام على الحضارة الغربية) -ترجمة حسين أحمد أمين- مايلي: «ومتى ألم المرء بكافة جوانب مواجهة المسيحية للإسلام في العصور الوسطى، وضح له أن تأثير الإسلام في العالم المسيحي الغربي هو أضخم مما يظن عادة. فلم يقتصر دور الإسلام على تعريف أوروبا الغربية بالكثير من منتجاته المادية، واكتشافاته التكنولوجية، ولا على إثارة اهتمام الأوروبيين بالعلوم الفلسفية، بل أنه دفع أوروبا إلى تكوين صورة جديدة لذاتها. وقد أدت مواجهة الأوروبيين العدائية للإسلام إلى تهوينهم من شأن أثر المسلمين في حضارتهم، ومبالغتهم في بيان أفضال التراث اليوناني والروماني عليها. ومن ثم فإنه من أهم واجباتنا معشر الأوروبيين الغربيين، والعالم في سبيله لأن يصبح عالمًا واحدًا، أن نصحح هذه المفاهيم الخاطئة، وأن نعترف اعترافًا كاملًا بالدَّين الذي ندين به للعالم العربي والإسلامي».

ونقلًا عن كتاب (الإسلام في الفكر الغربي) للواء أحمد عبد الوهاب ، سوف نستعرض بعض أقوال مفكري أوروبا المتاثرين بعظمة الإسلام: يقول الفيلسوف الفرنسي- "فولتير" الذي عاش في القرن(١٨) الثامن عشر الميلادي في (قاموسه

الفلسفي) مايلي: "لا يزال القرآن في واقع الأمر يشتهر إلى اليوم بأنه الكتاب الأكثر تميزًا وسموًا الذي كتب بهذه اللغة العربية. لقد ألصقنا بالقرآن ما لا نهاية له من السفاهات التي لم تكن به على الإطلاق... وفي كلمة موجزة، فإن شريعته صالحة وعقيدته تدعو إلى الإعجاب". أما البرلماني البريطاني "إدوارد جيب" الذي عاش في القرن(١٨) الثامن عشر فقد قال في كتابه (انحدار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها) عند الحديث عن الإسلام: "إن عبقرية النبي محمد، وسلوكيات أمته، وروح ديانته، كل ذلك يتضمن أسباب انحدار الإمبراطورية الرومانية الشرقية وسقوطها، وأن أنظارنا لتتجه في دهشة نحو واحدة من أكبر الثورات الجديرة بالذكر في العالم، والتي طبعت بعمق أثرًا جديدًا وخالدًا في أمم الأرض". "إن سبب هذا الاختلاف الهام بين الفكر المسيحي والفكر الإسلامي يمكن إرجاعه إلى مبدأ الفصل بين الشخصيات القائمة بأمور الملك والشخصيات القائمة بأمور الكهنوت، أو مبدأ التوحيد بينهما". أما السويسري "إدوارد مونتيه" الذي عاش مابين (١٨٥٦-١٩٢٧) فقال في كتابه (الدعاية المسيحية وأعداؤها المسلمون): "إن الإسلام في جوهره دين عقلاني وفق أوسع المعاني لهذا المصطلح من الوجهة الاشتقاقية والتاريخية. إن تعريف العقلانية باعتبارها نظامًا يقيم المعتقدات الدينية على مبادئ يدعمها العقل إنما ينطبق على الإسلام". أما "جورج برناردشو" الكاتب والمفكر الأيرلندي الذي عاش مابين (١٨٥٦-١٩٥٠م) فقد قال: "لقد كنت دائمًا احتفظ لدين محمد عندي بأعلى التقدير، وذلك بسبب حيويته المدهشة. إنه الدين الوحيد الذي يبدولي أنه يمتلك القدرة على استيعاب تغير أطوار الحياة بما يجعله محل إعجاب لكل العصور" إلى أن يصف النبي محمدًا(ﷺ) بأنه "منقذ الإنسانية" (لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولًا في أوروبا الغد كما أنه بدأ يكون مقبولًا في أوروبا اليوم). أما المستشرق الإنجليزي المعاصر "هاملتون جب" فقد قال في كتابه (الإسلام إلى أين): "إنه يمتلك تقاليد رائعة فيما يتعلق بالتفاهم والتعاون بين أجناس البشر. فلم يحرز أي مجتمع آخر -غير إسلامي- مثل هذا السجل من النجاح في التوحيد بين ذلك القدر الهائل والمتنوع من الأجناس البشرية بتحقيق المساواة أمام القانون، وتكافؤ الفرص للجميع، ولا يزال الإسلام قادرًا على تحقيق مُصالحة بين عناصر البشر وتقاليدها التي تستعصى على التصالح".